القرآن الكريم

المقاصد والأخلاقيات

الأستاذة الدكتورة

زينب عبد العزيز

استاذة الحضارة الفرنسية

القاهرة 2002

القرآن الكريم، المقاصد والأخلاقيات

القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الخاتم للرسالتين السابقتين. و هو يحوي أهم ما جاء فيهما، مما يتعلق بالإيمان و العبادة و نمط السلوك الإنساني. و يمكن القول إجمالا، و دون أن نوفيه كل حقه، أنه: ملتقى للعلماء، و معجم للغويين، و أستاذ معلم في النحو لمن يريد أن يحسن أسلوبه، و أنه موسوعة معارف و قوانين وأحكام: إنه الهداية الحقة الواضحة و المنطقية للبشر كافة؛ انه المعجزة الخالدة المساندة لرسالة النبي محمد عليه الصلاة و السلام و دستور يحوي كل ما يخص الإنسان في دنياه و في آخرته.

و من أهم خصائص القرآن، الوضوح الدقيق لمنطِقه المقنِع، الذي يحتوي على كل عناصر البلاغة، من تهيئةٍ للخطاب، و بحث عن الأدلة و ترتيبها، و طريقة إلقاء شاعرية لا مثيل لها. و ذلك دون الحديث عن الأمثال و الحكم الأخلاقية و التي يظل عمقها و مداها دائمة الفاعلية.

وقد امتد تنزيل القرآن الكريم على مدى 23 سنة، نزلت خلالها الآيات على فترات متقطعة حتى وفاة النبي صلى الله عليه و سلم في عام 632 من الميلاد.

ويحتوي القرآن الكريم كلام الله، المنَزَل على النبي محمد صلى الله عليه و سلم بوحي متفرِّد باللغة العربية بواسطة الملك جبريل عليه السلام. و انتقل تباعاً، كتابة و قراءة، بلا أدنى تغيير فيه . يتكون القرآن من 114 سورة مرتبة ترتيباً تنازلياً، و تنقسم السور إلى آيات، عددها الإجمالي هو 6326 آية. و لم يواجه القرآن أي مشكلات متعلقة بمصداقية النص مثل الكتاب المقدس. لأنه من بين كل ديانات التوحيد، يعتبر الإسلام الدين الوحيد الذي تم تثبيت مصادره منذ البداية. فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يتمتع بميزة فريدة، فمن بين كل الكتب المنزلة: إذ انه لم يخضع لأي تحريف أو تلاعب. لأن الثبات التام لنصه قد تم منذ عهد النبي صلى الله عليه و سلم. لذا فهو يمثل المعجزة الخالدة للإسلام بطابعه المتفرد ، المقنع و الكامل. إنه بمثابة تحدٍّ لكل من ينكر أنه منزّل من عند الله.

وكلمة القرآن تشمل معنيين : أحدها لغوي هو اسم فعل قرأ، بمعنى القراءة مثلما هو وارد في الآية : **"إن علينا جمعه و قرآنه 0فإذا قرأناه فاتبع قرآنه "** (سورة القيامة، الآية: 17، 18)؛ والمعنى الآخر هو الاسم العلم نفسه لهذا الكتاب المقدس، المبجل، النقي : "القرآن" ، بمعنى القراءة كما يجب أن تكون.

وبخلاف هذا الاسم العَلم، للقرآن خمسة و خمسون اسماً أو صفة أطلقت عليه على مدار الآيات. من بينها: الكتاب، الكتاب المبين، الكتاب الكريم، كلام الله، النور، النور المبين، الهداية الحقة ، الهدى و الرحمة، الصراط المستقيم، القاطع، النبأ العظيم، تنزيل رب العالمين، المعرفة، العلم، البشير و النذير. وتطلق عليه كذلك عشرة من أسماء الله الحسنى مثل: العزيز، الحكم ، المحيط، الحق، ولكن الأسماء الأكثر شيوعا عند المسلمين هي : القرآن، الكتاب، الفرقان.

وقد أنزِل القرآن بلسان عربي مبين، ذلك أن العربية كانت لغة قوم النبي محمد صلى الله عليه و سلم الذي بعثه الله إليهم رسولاً. و قد جاء في أحد الآيات: **"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم "** (سورة إبراهيم، الآية: 4) ، و هذا ما يثبت أن الإنجيل المنزل على سيدنا عيسى، أنزل باللغة الآرامية، لغته و لغة قومه و ليس باللغة اللاتينية أو الإغريقية كما يزعم المحرفون!

و كما أرسل الله كل نبي بلغة قومه، فقد أيده بمعجزات تدعم دعوته. كانت كل معجزات الأنبياء السابقين على المستوى المادي المحسوس مثل عصا موسى، ناقة صالح، الشفاء الذي كان يقوم به المسيح عليه السلام بإذن الله. كل هذه المعجزات انتهت بانقضاء الأزمنة التي جاءت فيها. و معجزة النبي محمد صلى الله عليه و سلم وحدها هي التي كانت على المستوى المعنوي : إنها القرآن الذي سيظل على مدى الزمان و المكان، لأنه النص الإلهي الوحيد الذي بقي سليما دون أدنى تحريف و لو في حرف واحد من حروفه. و أيا كان ما تحقق من تقدم مادي ، يظل القرآن - البيّن الذي لا يقهر- سيظل يكشف عن براهين تردَع كل منكرٍ للحقيقة و منكرٍ للوحي. هذا ما أوضحه تماما موريس بوكاي في كتابه المعنون: "الكتاب المقدس، القرآن والعلم" (La Bible, le Coran et la Science) حينما قال: "عندما نكون بصدد مراجعة مضمون النصوص الدينية بواسطة المعطيات المؤكدة ، فإنه عدم التوافق بين النص الإنجيلي و التراث المعرفي المعاصر يبدو جليا. بعكس النص القرآني الذي يتضح خلوّه من أي عنصر يمكن أن يثير النقد الموضوعي".

مراحل تحدي القرآن الكريم:

إن التحدي الذي يأتي به القرآن الكريم للمنكرين جاء على مراحل. ففي بداية إنكارهم قال لهم القرآن: **"فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين "** (سورة الطور، الآية : 34). و عندما عجزوا عن الرد و ادعوا أنه حديث مختلق، سألهم الله: **"أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "** (سورة هود، الآية: 13). و عندما عجزوا عن الرد ، طلب الله منهم أن يأتوا بسورة واحدة **"وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين "** (سورة البقرة، الآية : 23). ثم جاء آخر تحدٍ، بالنظر لعجز المنكرين: **"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على**

أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (سورة الإسراء، الآية 88).

إن حجة النبي التي لا يمكن دحضها تكمن في أن الله أوحى إليه هذا القرآن باللغة العربية التي يجيدها العرب تماما و يلّمون بكل معانيها و لكنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بحديث مثله و لو بسورة واحدة من ثلاث آيات مثل أقصر سور القرآن.

الجوانب المختلفة لهذا الطابع المتفرد:

و بخلاف الجانب اللغوي و الذي به مصدر ثراء اللغة العربية الخارق ، هذا الجانب الذي مثل تعجيزاً للعرب في زمن الوحي و لا يزال مستمرا حتى أيامنا هذه، دون أدنى تغير في الانطباع الذي يحدثه ، هناك جوانب عديدة تكشف و تثبت هذا الطابع المتفرد و المقنع و الكامل للقرآن الكريم و الذي لم يستطع أحد أبداً أن يقلده في الشكل أو المضمون.

ففي مجال الغيب، لا أحد يمكنه أن يتنبأ بالمستقبل بدقة فائقة . و مع ذلك فهناك أحداث عديدة تنبأ بها القرآن الكريم، منها قصص الأنبياء السابقين و أقوامهم، والمعطيات والمعارف العلمية التي لم تعرف إلا منذ قرن أو منذ عدة سنوات والتي لا يمكن لأي تقدم علمي أن يكذبها، ذلك دون أن نتحدث عما لم يثبته العلم بعد. إن القرآن يحتوي على معطيات عن بدء الخليقة، عن الدورات السابقة، وعن أخبار الأمم السابقة والقادمة، كما يحتوي على كل أنواع التحريف التي ارتكبت في حق الكتب المقدسة لرسالتي التوحيد السابقتين.

وفي المجال الاجتماعي، يحتوي القرآن على الهداية الحقة لتوجيه الناس نحو الاستقامة و لمعالجة العيوب التي تصيب المجتمعات، على مستوى العبادة والأخلاق وعلى المستوى الاجتماعي. إنه يمثل معيناً لا ينضب من التعاليم. بيد أن النبوءة الراسخة تظل بكل تأكيد، هي أن الإسلام سيتجلّى على كل الديانات الأخرى ! إنها حقيقة نعيشها جميعا - شرقيون وغربيون- أيا كان اختلاف الرؤى أو وجهات النظر. لأنه رغم كل جهود التعصب الكنسي، و رغم مليارات الدولارات التي أنفقتها حملات التبشير و المبشرون، لمحاصرة الإسلام - منذ ظهوره و حتى أيامنا- إلا إن الإسلام يواصل مسيرته و امتداده ! رغم الضغوط الكاسحة التي شبهوها "بوابور الزلط" الذي يحاولون جميعاً سحق الإسلام به. و هنا لا يسعنا إلا أن نكرر ما جاء في القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا: **"هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون "** (سورة التوبة ، الآية 33). و هذا ما يسبب- للأسف- ذلك الذعر في الغرب في أوساط المتعصبين المعاصرين الذين يرون أنه مهما تكن الجهود المبذولة للتلاعب في ترجمات القرآن و من أجل تضييق الخناق على تعاليم الإسلام ، و لمنع انتشاره، أو حتى لتنصير الشعوب مستخدمين في ذلك كل أنواع الحيل و الإكراه ، إلا أن الإسلام يواصل انتشاره بقوة و بصورة واضحة.

ولا نملك هنا إلا أن نضيف بكل موضوعية : بدلاً من كل هذه المحاولات لاستئصال الإسلام، ألن يكون أكثر منطقية و أكثر إنسانية و حتى أكثر تحضرا محاولة فهمه على حقيقته ؟! فلا أحد يجهل - في الواقع- أن التدبير الأصّم و الحثيث الشديد العناد- الموجه ضد الإسلام و المسلمين و الذي بدأ منذ ظهور الإسلام و انتشاره، قد تزايد بإيقاع جامح منذ مجمع الفاتيكان الثاني و التي صدرت خلاله بعض القرارات التي تعد هي الموجهة للسياسة الحالية، بعد اتفاق مشترك بين حكام كل من الولايات المتحدة و الفاتيكان و منها :

1- تبرئة اليهود من الصلب (كي يكونوا رسميا أسياد و أرباب كل شيء).
2- اقتلاع الشيوعية في عقد الثمانينيات (كي لا يتبقى أي نظام سياسي و اقتصادي إلا الرأسمالية اليهودية-الأمريكية).
3- اقتلاع الإسلام في عقد التسعينيات (كي لا تبقى إلا المسيحية المحرفة التي ستؤول في النهاية إلى يهودية-مسيحية إرهابية).
4- إعادة تنصير العالم (كأن العالم كان دائما مسيحيا !) حتى تبدأ الألفية الثالثة بعد تنصير الأرض في كنف كاثوليكية الفاتيكان.

كل ما يحدث حاليا حول العالم - للأسف- يثبت ذلك دون أدنى تكذيب.

الثورة التي أحدثها القرآن:

إن الثورة التي أحدثها القرآن عند تنزيله مست عددا من الميادين. فقد بدأ بمحاربة تعدد الآلهة سواء الوثنية، أو ما فرضه المتحكمون في الكنيسة من تأليه للمسيح و ذلك في أول مجلس كنسي في نيقيه (سنة 325)، كما أنه هاجم الانشقاق الطائفي و التعصب وضيق الأفق الذين يولدهم التعنت كما هاجم كل ما تسبب في انحراف التوحيد الأول عن طريق الحق.

إنها ثورة تقوم بتحرير العقل البشري، بفضل أخلاقيات أساسها التدليل المنطقي القاطع و المقنع ، حتى يغير الناس سلوكهم، بمحض اختيارهم وبالتفاهم و الرحمة و ليس بالإكراه. و قد كان عديد من العرب قد اعتنق اليهودية أو المسيحية قبل مجيء الإسلام ثم هزتهم بشدة تعاليمه و هدايته الحقة إلى الصراط المستقيم و التي تشمل الجانبين الروحي و الاجتماعي دون أدنى تناقض.

مقاصد القرآن الكريم:

تهدف مقاصد القرآن الكريم إلى رقي البشرية و إصلاح المجتمع. فالقرآن كتاب تربية و تعليم، كتاب يطهر و ينقي بفضل مدى وعمق قِيَمه المنطقية، لأن القرآن لا يحتوي على أي دوجماتية أو فرض للأفكار غير العقلانية. فالتنزيه المطلق لله عز و جل، و التمييز البيّن و التام بين الخالق و خلقه، والإيمان بيوم الحساب، بالبعث، بالثواب والعقاب ما هي إلا مبادئ أساسية. و كذلك توضيح ما يجهل الناس عن

النبوة، عن رسالة التوحيد، و عن دور الرسل الذين بعثهم الله للأمم المختلفة، و تفنيد ما شوهه الوثنيون واليهود و النصارى في رسالة التوحيد في ظل حماية قسطنطين لهم ، و كذلك الرفض الجازم للتثليث الذي ما هو إلا شكل من أشكال الشرك غير المفهوم والذي يصعب تخيله؛ وإثبات أن الشفاعة في كليتها ليست إلا لله رب العالمين. فإن كل الأنبياء لم يبعثوا - في الواقع- إلا لنشر الرسالة نفسها: وحدانية الله، الإيمان بالقدر، بالشريعة و بآيات الله.

والإسلام هو دين الفطرة السليمة، دين العقل و الفكر، العلم و الحكمة، دين البراهين و الحجج، دين الضمير و الإحساس،الحرية و الاستقلالية. والإسلام - الذي لا يمارس أي سيطرة على روح الشخص أو عقله- يخرج الناس من غياهب الظلمات التي فرضت عليهم إلى نور العقل.

والعقل الذي لم يرد ذكره بتاتا في الكتاب المقدس يمثل عنصراً أساسياً في القرآن الكريم. فقد ورد ذكر العقل ووظائفه أكثر من مائة مرة على عدة أشكال : "أولوا الألباب"، "أولوا النهى"، "الذين يعقلون"، "الذين يتفكرون"، " يتدبرون"، " يبصرون"، و كلها ليست سوى أسماء مختلفة لأولئك الذين يستخدمون عقولهم. فالأفعال التي تحث على التفكير والتأمل والتدبر والفهم والتصور والسمع والتمييز والترقب تمثل تشكيلة ذات أهمية بالغة. كذلك كلمات مثل العلم والحكمة والمعرفة و مشتقاتها كلها كلمات ذكرت مئات المرات في القرآن الكريم. حتى قلب الإنسان - بصفته عضو الإدراك و التفكير في القرآن- ذكِر وحده مائة و اثنتين و ثلاثين مرة! ذلك دون الحديث عن الآيات المتعلقة بالعلوم و الدراسات. ويمكننا أن نضيف بهذه المناسبة ، أن كون القلب عضواً للإدراك و التفكير كما جاء و صفه في القرآن هو أحد المعطيات التي لم يثبتها العلم بعد.

و بالإضافة لتأكيده على أهمية العقل والعلم و المعرفة، ينفي القرآن كل إكراه في الدين و يهدف إلى الإصلاح الإنساني والاجتماعي والسياسي و الوطني المبني بفضل الوحدة. وهذه الوحدة يحققها القرآن في ثمانية مجالات : وحدة المجتمع والجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع القائم على العدالة، الأخوة بين أفراد المجتمع، المساواة في العبادة، وحدة المواطنة السياسية الدولية، وحدة العدالة ووحدة اللغة.

ويمثل سن الخصائص العامة للإسلام فيما يتعلق بالالتزامات الشخصية بالواجبات و الأمور المستحقة مقصداً آخر. و يمكننا وصف هذه الخصائص كما يلي: القسط في كل شيء و من أجل الجميع : تحقيق السعادة في الحياة الدنيا و الاستعداد للحياة الأخرى بعمل الأفضل. تقليص الفروق الاجتماعية القائمة بين الأشخاص، التعارف بشكل أفضل من أجل تقارب إنساني دون تشيّع. الرحمة حتى في تطبيق الفروض، مثلا بالنسبة للمرضى و المسنين الذين لا يستطيعون الصوم يمكن أن يكفِّروا بالصدقة. منع أي مبالغة في العبادة و في تطبيق تعاليمها. التقليل من أي إكراه، لأن التعاليم الشرعية مقسمة تدريجياً: ما هو قطعي فهو عام، وما هو تطوعي

فكلٌ يؤدي منه قدر استطاعته. فعلى سبيل المثال عدد الصلوات المفروضة خمسة أما صلاة النافلة فتترك لإرادة و قدرة كل شخص.

ومن مقاصد القرآن معاملة الأشخاص دون قهر أو طغيان لأنه لا أحد لديه الحق في الحكم على غيره حسب المظاهر و لا في التصرف كسيِّد على كل شيء و متحكم في الجميع! كما أنه لا يحق لأحد بتاتاً إيذاء جاره أو تجاوز القوانين لأن ذلك يمس سيادة القانون و القضاء.

ويمثل تِبيان توجيهات الإسلام في السياسة، من حيث طرقها و قواعدها العامة، مقصدا آخر. فالسلطة في الإسلام تعود للأمة، التي هي مجموع الشعب. و قوام هذه السلطة هو الشورى و ليس الاستبداد، ويكون على رأس السلطة الإمام أو الخليفة الذي يطبق الشريعة. والشعب هو الذي له الحق في تعيينه أو عزله. هذه السلطة القانونية و السياسية الممنوحة للشعب، تعود لكون القرآن يخاطب المؤمنين في مجموعهم في الآيات الخاصة بالسلطة و الدولة، وكذلك فيما يخص الأحكام العامة. فالقرآن لا يكتفي فقط بالنصح بالعدالة المطلقة و المساواة بل يعدهما معيارين أساسيين، بينما يمنع الظلم منعاً باتاً. كذلك فإن الفضيلة مأخوذة تماما بعين الاعتبار في كل أحكام القرآن التي تحض على العدل في كل المجالات.

و يعد الإصلاح المالي أحد المقاصد التي تضع حدا لطغيان الثروة و سلطتها ؛ للهجمات الحربية و نكباتها؛ للظلم المفروض على المرأة و الاستحواذ عليها؛ للظلم المرتكب ضد الضعفاء والسجناء والعبيد. فالثروة و المال يعتبران اختباراً يمكن أن يوجه الإنسان نحو الخير أو الشر. لذا يصف القرآن عدة وسائل تبين كيف يهب المرء من ماله، كيف يتعلم أن يعطي لمساعدة جاره وقريبه، وكيف يمتنع عن الشح و التفاخر. وأنْ يتعلم المرء كيف يهب، هو في الحقيقة محور إنساني و أخلاقي ذو أهمية كبرى في القرآن الكريم، فما نحن إلا مؤتمنين على المال، أما المالك الحقيقي لكل شيء فهو الله.

ويمكن إذًا أن نلخص الإصلاح المالي في القرآن الكريم – عموما- في النقاط التالية: قبوله الملكية الفردية بشرط عدم حرمان الغير أو الإضرار بهم و عدم الغش؛ تحريمه الربا و الميسر؛ سماحه بوضع السفهاء تحت الوصاية للمحافظة على مالهم؛ فرضه للزكاة منذ بداية الإسلام؛ تقريره إعالة الزوجة في حالة الطلاق؛ مساعدة المحتاجين وضيافة عابري السبيل؛ إعطاء الصدقات؛ إدانته للإسراف والتبذير والبخل والشح.

و هناك إصلاح النظام الحربي و الذي يهدف لإنهاء الخراب الذي تؤدي إليه الحروب، و المحافظة على مصلحة الجنس البشري. ويمكن أن نلخص هذا الإصلاح كما يلي: محاربة المعتدين هي أول قاعدة مع منع البدء بالهجوم أو الاضطهاد و الجور. و الهدف من وراء هذا القتال - بعد دفع العدوان- هو الدفاع عن الدين دون أي إكراه. وتفضيل السلم على الحرب، لأن السلم هو الحالة الأساسية التي ينبغي أن

يعيشها الناس. والبقاء في حالة تأهب من باب الاحتياط. واستعمال الرحمة في وقت الحرب و في معاملة الأسرى. لذلك يلحّ القرآن على قيمة الشرف والنزاهة و يدين المراوغة و التمييز،كما يشيد بالاستقامة، ويحث على المحافظة على العهد، والوفاء بالمعاهدات المبرمة و يحرم الخيانة.

إن وضع المرأة هو واحد من أكبر إسهامات الإسلام، والذي يمنح للمرة الأولى في تاريخ البشرية حقوقًا إنسانية و دينية و اجتماعية لهذا "المخلوق" الذي امتهن كثيرا حتى ذلك الوقت. فقد تدنى وضع المرأة في مجتمعات قبل الإسلام بما فيها مجتمعات أهل الكتاب (اليهود و النصارى) إلى حالة غير إنسانية و عنصرية. وفقط بمجيء الإسلام منح القرآن للمرأة نفس حقوق الرجل عدا ما يستثنى بحكم طبيعة تكوينها، كما حث الإسلام على تشريفها وعلى إحاطتها بالرحمة و المودة.

فقد كانت المرأة قبل الإسلام مادة للبيع و الشراء، كانت ترغم على الزواج و البغاء، كانت تورث كالتركة، و لم يكن لها الحق في الميراث، حتى أنها كانت تعتبر مادة نجسة، دونية، دون روح ، بتقرير من أحد المجامع الكنسية ! وكان لأبيها الحق في بيعها أو دفنها حية عند ميلادها. بينما أعطاها الإسلام حق التملك ، سمح لها بالميراث، و غمرها بالعطف بجعل الرجل مسؤولاً عن إعالتها، حتى إن كانت غنية، كما منحها الحق في إدارة ممتلكاتها الخاصة، و سمح لها بالبيع و الشراء والتصدق وحماية مالها وأعطاها حق اللجوء للإجراءات القانونية. و هو ما لا تعرفه بعد بعض الغربيات!

وفي هذه الجملة من الأحكام المشرّفة للمرأة، يدين القرآن و يحرم تحريماً قاطعاً البغاء و الزنا و يقرر في حقهما عقوبات صارمة : الجلد أو الرجم. كذلك بالنسبة لتعدد الزوجات الذي كان غير محدود عند اليهود و الوثنيين، يحدده القرآن بأربع زوجات، و يكون بسبب ظروف مثل المرض العضال أو العقم، مع التأكيد التام على العدل و الرحمة: **"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا "** (سورة النساء، الآية 3) و بعد هذه الآية بقليل و في نفس السورة يقول الله تعالى : **"ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .."** (سورة النساء، الآية 129). إذن الذي يريد حقاً أن يتبع الأوامر الإلهية ما عليه إلا أن يتمسك بالأساس: العدل. والسبيل الواجب اتباعه و الاختيار السليم واضحين تماماً.

ولا يمكن أن نتحدث عن المقاصد الرئيسية للقرآن الكريم دون التطرق إلى تأكيده على الحرية و عتق العبيد أو رؤيته في معاملة الأسرى. و الحقيقة أن قانون البقاء للأقوى كان و ما زال هو السائد في كل المجتمعات القديمة و حتى أيامنا هذه ، و لنذكر- و ليس على سبيل الحصر- الغطرسة الفائقة للسياسة الأمريكية الحالية و عربدتها المندفعة عبر العالم ! فقد أساءت كل الحضارات القديمة معاملة العبيد و فرضت عليهم أقسى الأعمال، فكان الظلم و التمييز هما القاعدة. وقد ظلت هذه

الحالة قائمة في اليهودية و المسيحية. و بقي الرق معمولاً به في أوروبا و الولايات المتحدة حتى نهاية القرن الثامن عشر. ولم يلغ من بريطانيا إلا في نهاية القرن التاسع عشر. ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن هذه البلدان لم تشرع في مثل هذه الإجراءات إلا لرعاية مصالحها الاستعمارية و الإمبريالية الخاصة. كذلك فإن لا أحد يجهل إلى أي مدي ما زال لون البشرة يؤثر في هذه المجتمعات. بينما نرى مع مجيء الإسلام في القرن السابع نص القرآن على عتق العبيد، لأول مرة في تاريخ البشرية ، مع مراعاة مصلحة المالك و الرحمة بالمعتوق.

أخلاقيات القرآن الكريم:

كان هذا هو الملمح العام لمقاصد القرآن الكريم بخطوطها العريضة. بقيَ أن نعرض أخلاقياته من خلال مفاهيم الواجبات، المسؤولية، العقوبات، النية و السعي والتي هي جميعا مفاهيم مرتبطة بالنظام التربوي للقرآن و تمثل الأعمدة الأساسية التي يقوم عليها هذا النظام الذي يظهر فيه بوضوح تام الفرق بين ما هو مفروض، ما هو جائز وما هو منهي عنه أو محرّم. و من جهة أخرى فإن أخلاقيات القرآن تمثل قانوناً أو قاعدة عامة ثابتة مطلوب تطبيقها على الإنسانية جمعاء. و ذلك لأن كل مبدأ مذكور في القرآن، يمكن دون تعديل أن يطبقه المرء على نفسه أو على الغير، على الأغنياء كما على الفقراء.

غير أنه من المثير للدهشة أن نرى المستشرقين الذين فتشوا في القرآن عن كثب بغرض مهاجمته يلتزمون صمتاً مطبقاً، و لا نريد أن نصفه بصمت الأموات، فيما يتعلق بأخلاقيات القرآن، بقيمتها الجليَّة و التي لا تقدر، وكذلك فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية العامة، و التي تدور عناصرها الأساسية حول المعرفة والسلوك. إن مجموع الآيات المتعلقة بهذين المجالين، تمثل تهذيبا للسلوك البشري في الحياة اليومية، و تؤدي إلى راحة الذهن في ما يخص الحياة الأخرى. إنه "تشريع كامل مزدوج الكمال" ، كما يقول الشيخ دراز : أنه مرونة في الصرامة، تقدم في الثبات، و تنوع في الوحدة. مما يسمح للنفس البشرية أن تضمن سعادة مزدوجة من الصعب التوفيق بين شقيها: فهي نوع من الاستسلام في إطار من الحرية، لمحة من الرغد و التيسير أثناء الكفاح، و بادرة تجديد مع الحفاظ على الاستمرارية. وللأسف فإن عدد كبير من الغربيين لم يفهموا اتساع هذه الحكمة و لا عمقها. لأن القرآن يدعو إلى الأخذ بالمنطق السليم ويحث على التفكير و التدبر. إن الضمير الذي يتوجه إليه القرآن مستنير بتعليم إيجابي، فيه الواجبات محددة ومقسمة و قادرة على مواجهة الواقع الحي. فهل يصعب فهم ذلك المعنى إلى هذا الحد ؟ ومع ذلك، فإن قانون الأخلاقيات به فيه وضوح لا ريب فيه. و أحكام ذلك القانون في مجملها موجهة إلى البشرية جمعاء، فنفس القاعدة، كما عرضنا منذ قليل يمكن أن تطبق على النفس وعلى الغير، على الأقارب وعلى الأغراب، على الفقراء وعلى الأغنياء، داخل المجتمع أو خارجه. وكل حكم من هذا القانون يؤخذ على أنه مبدأ قابل للتعميم، يمكن تطبيقه على الحالات المشابهة. مع الإشارة إلى أن الواجب الأخلاقي في القرآن

يحكمه شرطان :أن تكون أحكامه في متناول الطبيعة الإنسانية و أن تكون في الوقت ذاته قابلة للتنفيذ، بعيدا عن أي نوع من الاستبداد عند تطبيقها في واقع الحياة الملموس.

وهناك نتيجتان للفروض المبينة في القرآن : المسؤولية والعقاب. و لأن المسؤولية الأخلاقية و الدينية هي مسئولية فردية فهي لا تنتقل من شخص لآخر و لا مجال لأدنى التباس فيها. فكل شخص يتحمل مسؤولية أفعاله كاملة. لا أحد يتحمل تبعات غيره. تنظم الإجراءات القانونية العقوبات المدنية ، أما معاقبة الإنسان على نواياه و ما في ضميره فمردها إلى الخالق.

إن مذهب القرآن الكريم هو خلاصة، أو إذا جاز القول هو خلاصة خلاصات، حيث أن شكله ومضمونه مترابطين ترابطاً وثيقاً في أسلوب متماسك ودقيق. وهو يلبّي كل المتطلبات الشرعية، الأخلاقية، الاجتماعية و الدينية للإنسان. و هذا المذهب في مجموعه تميّزه روح التوافق التي تجعله يجمع في آن واحد بين التحررية والانضباط، بين العقلانية و الروحانية، بين الليونة والصرامة، وبين المحافظة والتقدمية. إنه كيان عضوي تلتحم فيه كل هذه العناصر معاً لتبقى متحدة دون أي تعارض. إنه ليس مجرد وضع للأضداد جنباً إلى جنب ولكنه تكامل إيجابي، يحافظ على النظام ويسمح بالتقدم الإنساني العالمي.

وهذه المفاهيم يرتبط بعضها ببعض: فالعقل يقود للإيمان، و الإيمان يرجع إلى العقل. و الإنسان بقيامه بواجباته و مسئوليته، يسهر على حسن سير الأخلاقيات العامة. إذ إن التقوى بكل تأكيد هي المبدأ الأساسي الذي يجمع بين احترام ما هو مثالي والبحث عن الأحسن.

و حتى نحظى بنظرة شاملة ربما تعطينا فكرة أكثر واقعية عن ما قلناه، لنرجع إلى رسالة الدكتور دراز[1][1] ونقوم بتصنيف للآيات طبقاً للموضوعات التي تتناول الأخلاقيات: الفردية، الأسرية، الاجتماعية، و كذلك التي تخص الدولة و الدين.

1- الأخلاقيات الفردية:

وهي تشمل أربعة أقسام من التعاليم:

أ- <u>الأوامر:</u> وتشمل: توجيهات عامة؛ توجيهات أخلاقية؛ الحث على المجهود المعنوي للوصول إلى نقاء الروح؛ الاستقامة، العفة؛ الأدب؛ غض البصر؛ السيطرة على الأهواء؛الامتناع في وقت معين عن الطعام و مباشرة الأزواج؛ كظم الغيظ ؛ الصدق ؛ لين الجانب و التواضع؛ التريث في الأحكام؛ عدم إتباع الظن؛ الثبات و التحمل؛ الإقتداء بالأمثلة الحسنة؛ المحافظة على الوسطية؛

فعل الخيرات ؛ التنافس في فعل الخير؛ حسن الاستماع و اختيار النصيحة الأفضل؛ نقاء النية.

ب- النواهي: و تشمل: الانتحار؛ بتر وتشويه الإنسان لجسمه؛ الكذب؛ النفاق؛ تناقض الأعمال مع الأقوال؛ البخل؛ الإسراف؛ التفاخر؛ التعالي؛ التكبر؛ العُجب؛ التباهي؛ تفاخر الإنسان بقوته أو بعلمه؛ التعلق بالدنيا؛ الحسد والطمع؛ الإغراق في ما لا يفيد من الندم أو في الفرحة المبالغ فيها؛ الفجور؛ تعاطي المشروبات الكحولية ؛ كل رجس (مادي أو معنوي)؛ أخذ مال بطريقة غير مشروعة؛ و كذلك إساءة إنفاق المال.

ت- المباح: و تشمل الاستعمال المعتدل لما هو طيّب.

ث- الإستثناء: و تسمح عند الضرورة القصوى.

2-**الأخلاقيات العائلية**:

و تشمل أربعة أقسام من التعاليم.

أ- الواجبات نحو الآباء و الأبناء: و تشمل: البر ؛التواضع؛ طاعة الوالدين؛ احترام حياة الأطفال وعدم التفريط فيها ؛ تربية الأطفال و العائلة بصفة عامة على الأخلاق.

ب- الواجبات الزوجية و تشمل: 1- أسس إنشاء الأسرة : معرفة روابط الزواج المحرمة والجائزة؛ تحديد الخصال الضرورية والمستحبة ؛ القبول الحر والمتبادل؛ الصداق؛ شروط تعدد الزوجات. 2-الحياة الزوجية: الروابط المقدسة والمحترمة، السلام داخل الأسرة؛ المودة والرحمة؛ المحافظة على النسل؛ المساواة في الحقوق والواجبات؛ الحوار و القبول المتبادل ؛ التحاور الإنساني؛ الحياة بتوافق، حتى في حالة التنافر؛ المصالحة حتى في حالات النزاع؛ الاحتكام. 3- الطلاق: اعتبار الانفصال أسوأ الحلول؛ تحديد فترة العدّة؛ توفير السكن الملائم والمعاملة الطيبة أملاً في الإصلاح؛ عدم فرض عدة إجبارية على المرأة التي طلقها زوجها قبل الدخول بها؛ وجود خيارين بعد العدة: إما العودة عن اقتناع، أو الانفصال الذي يعطي الحق في زواج آخر؛ عدم ابتزاز المرأة المطلقة؛ عدم اعتبار الطلاق نهائياً إلا بعد المرة الثالثة؛ فرض النفقة للمطلقات اللواتي ليس لهن صداق؛ وكذلك فرض نفقة للمطلقات بشكل عام.

ج- الواجبات تجاه الأقربين: و تشمل إشراكهم معنا في سعادتنا؛ حقهم في الوصية.

د- الميراث: ويشمل تحديد الحقوق المخصصة للذكور، وهي ليست حكراً على أكبر الأبناء أو الأطفال الوحيدين؛ و تحديد قواعد التقسيم.

2- **الأخلاقيات الاجتماعية**:

و تشمل 3 أقسام من التعاليم:

أ- المحرمات : وتشمل قتل النفس؛ السرقة؛ الاحتيال؛ الربا؛ كل أنواع النهب؛ كل أنواع التملك غير القانوني؛ سلب المال خاصة مال اليتيم؛ خيانة الأمانة وإساءة استغلال الثقة؛ القذف دون دليل؛ الظلم؛ التواطؤ؛ الدفاع عن الظالم؛ عدم الوفاء بالعهود؛ الغدر والخداع؛ تضليل القضاة أو رشوتهم؛ شهادة الزور؛ الازدواجية؛ السب، إساءة معاملة الفقير واليتيم؛ السخرية؛ تحقير الغير؛ التجسس؛ النميمة والقذف؛ العلاقات خبيثة النية و التصديق المتواطئ؛ التشنيع؛ التدخل الضار في أمور الغير؛ عدم التأثر بما يحل بالجماعة من ضرر .

ب- الأوامر: و تشمل: رد الأمانة؛ المصادقة على العقود لإبعاد الريبة؛ الوفاء بالعهود و الوعود ؛ شهادة الحق؛ إحلال السلام بين الناس، رفض الشفاعة أو الوساطة لصالح المجرمين؛ التواضع و التعاطف المتبادل؛ فعل الخير خاصة للضعفاء؛ إنماء أموال اليتيم؛ تحرير العبيد أو تسهيل حصولهم على حريتهم؛ العفو وفي كل الحالات عدم التجاوز في معاقبة المسيء؛ دفع السيئة بالحسنة؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ نشر العلم، المودة وإكرام الضيف؛ حب الناس؛ تحقيق العدل مع الإحسان. عدا هذا هناك ثلاثة مواقف تتسم بالشرعية إلى حد ما: الحرص على الحصول على الحقوق، الكرم في حال الغنى، الإيثار. والواجب الصرف يتصدر الوسط.و يعد التصدق واجباً عاماً، الشروط الضرورية في الصدقة: تحديد مصارفها، إخلاص النية، جودتها، طريقة الإعطاء (الأفضل أن تكون سرية و غير مهينة لآخذ الصدقة). الحث على حب العطاء؛ وإدانة اكتناز الأموال.

ت- قواعد الأدب: و تشمل: الاستئذان للدخول على الغير؛ غض الصوت و عدم مناداة الكبار من خارج المكان؛ إلقاء التحية عند الدخول؛ رد السلام بأحسن منه؛ التفسح في المجالس؛ اختيار مواضيع محترمة للأحاديث؛ استخدام الألفاظ الأكثر عذوبة؛ الاستئذان عند ترك المجلس.

3- **الأخلاقيات في الدولة**:

و تشمل قسمين من التعاليم.

أ- علاقة الحاكم و الشعب: و تشمل جانبين: 1- واجب الحكام: مشاورة الشعب، تطبيق القرارات المتخذة بفعالية حسب ما تقتضيه العدالة؛ إرساء النظام؛ المحافظة على المال العام وعدم اختلاسه؛ والامتناع عن جعله منفعة خاصة للأغنياء؛ إعطاء الحرية القانونية للطوائف الدينية المحلية. 2- واجب الشعب: الحفاظ على النظام؛ الطاعة المشروطة؛ الاجتماع على الخير؛ الشورى في الأمور المشتركة؛ تفادي البلبلة والتخريب؛ تجهيز وسائل الدفاع المشترك؛ الرقابة الأخلاقية؛ الامتناع عن التواطؤ أو التحالف مع الأعداء.

ب- العلاقات الخارجية: وتشمل جانبين:1- في الظروف العادية: الحرص على الأمن العام؛ الحض على ثقافة السلام بلا إجبار أو إثارة للكراهية؛ البعد عن التسلط والاضطرابات؛ عدم المساس بأمن الحياديين؛ حسن الجوار و العدل و الخير.2- في حالة العدوان:عدم التخوف من المبادرة باستخدام السلاح؛ عدم القتال في الأشهر الحرم أو في الأماكن المقدسة. هناك حالتان تكون فيهما الحرب شرعية:1- الدفاع عن النفس 2- إغاثة الضعيف الذي لا يمكنه الدفاع عن نفسه. قتال من يقاتلنا فقط؛عدم الفرار من أمام المعتدي؛ الحزم والوحدة أمام العدو؛ التحلي بالصبر والأمل؛ عدم الخوف من الموت لأنه يأتي في أجله؛ لكن الأوْلى هو الخوف من الابتلاءات ونزعات الخائنين؛ عدم الاستسلام ولكن قبول السلام والامتناع عن ملاحقة العدو بعد استسلامه؛ الوفاء بالعهود المبرمة؛ عدم الرد على الغدر بمثله؛ الوفاء ببنود العهد حتى وإن كانت مجحفة. الإشادة بالطموح واعتبار الأخوة الإنسانية قيمة مقدسة تعلو على تبني الأحكام المسبقة القائمة على اختلاف الأعراق والأجناس. و هذه الأخوة هي معيار التقدير.

5- **الأخلاقيات الدينية**:

و تشمل واجبات الإنسان نحو الله: الإيمان به وبالحقائق التي أقرها سبحانه؛ الطاعة غير المشروطة لله؛ التدبر و التأمل لكلماته و لآياته؛ الاعتراف بنعمه وحمده عليها؛ تحمل ابتلاءاته باستسلام؛ اللجوء إليه؛ عدم القنوط من رحمته ولا أمْن مكره؛ تعليق كل قرار مستقبلي بإرادته؛ الوفاء بعهد الله؛ عدم النطق بما لا يليق من القول في حقه سبحانه؛ اجتناب التورط في أية أحاديث بها تحقير للدين؛ عدم جعل الله عرضة للأيمان؛ الوفاء باليمين و العهد؛ ذكر الله على الدوام؛ تقديسه وتعظيمه؛ أداء العبادات اليومية لوجه الله؛ زيارة الكعبة (على الأقل مرة في العمر)؛ الاستغناء عن الدنيا بأسرها؛ دعاء الله كثيراً خوفاً وطمعاً؛ الإنابة إليه واستغفاره؛ حب الله، حبه تعالى حباً يفوق كل شيء.

يناير 2002

الخاتمة

ليس المجال هنا الحديث عن التحريفات التي تعرض لها الإنجيل العبري أو العهد القديم المسيحي، بإضافة بعض الكتب التي لم تكن موجودة بالعبرية، أو بالحذف و الاستبعاد الذي قامت بها الكنيسة. و هذا الاستبعاد شديد الأهمية بالنسبة لحياة المسيح عليه السلام أو بالنسبة للتعاليم التي قدمها ، فعلى حد قول موريس بوكاي أن الكنيسة: " لم تحتفظ في العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات أهمها الأناجيل الأربعة المعتمدة" (ص 5 من المقدمة). و بالفعل فليس من فراغ أو بلا سبب أن تحدد الوثيقة رقم 4 من مجمع الفاتيكان الثاني في وصفها لهذه الكتب القديمة: "إنها تحوي أموراً غير مكتملة و باطلة" ، و في الوقت ذاته لا يفوتها أن تضيف ، في نفس الجملة ، أن هذه الكتب على الرغم من ذلك تعد " الدليل على منهج تربوي الهي حقيقي"!!

لكن رغم هذه المعطيات التي لم يعد أحد يجهلها، و التي تعتبر من أحد الأسباب المباشرة للإلحاد في الغرب فتجدر الإشارة إلى أن اليهودية لا تقبل بأي رسالة جاءت بعدها، وهذا موقف لا يتحدث عنه أحد ، خاصة الكنيسة، حتى بعد أن أعادت لليهود الاعتبار بتبرئتهم من تهمة الصلب؛ و المسيحية لا تأخذ بعين الاعتبار رسالة جاءت بعد عيسى عليه السلام. والديانتان رغم تعارضهما نتيجة الاختلافات و العداءات اللاهوتية ، يتفقان على رفض أي رسالة بعدهما حتى و إن كان لوجودها سببا أو حكمة! إذ أنه على حد قول الأب لولونج: " ما تزال رسالة القرآن و شخصية الرسول محمد صلى الله عليه و سلم و الفكر الإسلامي الأصيل و المعاصر لا تأخذ حقها من التقدير بشكل غريب في الرأي العام الغربي . وعلاوة على هذا فإن هذا الرأي العام تصوغه أحكام مسبقة صنعها التاريخ و التقليل من الشأن إعلاميا ، ظهرت في عصرنا هذا ، لدرجة تجعله يحسب أنه على علم بأمور ليست لديه معرفة حقيقية بها" (ص 75). و يضيف موريس بوكاي على هذا وعن دراية تامة قائلا : " إن القرآن يحوي كلام الله، بلا أي إضافة بشرية. و وجود المخطوطات التي ترجع إلى القرن الأول من العصر الإسلامي يدل على صدق النص الموجود حالياً " لأنه " في القرآن لا يوجد تعارض بل تناغم بين النص والمعارف الحديثة، تناغم لا يستطيع البشر تفسيره." (ص 2 و3 من المقدمة.)

ومن جهة أخرى، فإن القرآن يوجب على كل مسلم الإيمان بالرسالتين السابقتين، كما أنزلهما الله تعالى ، بعيداً عن أي تحريف.

إذن، فإن فهم الإسلام كما أنزله الله ، يعد ضرورة تفرض نفسها في أيامنا هذه إذا كنا نريد أن نحافظ على النزاهة الإنسانية. لأن استيعاب هذا التميز الذي يتصف به

الإسلام، و الذي يعتبر أساسه و معياره في آن واحد وحدانية الله المطلقة و تنزيهه، سوف يسمح باستيعاب السبب وراء رفض الإسلام لكل صور الشرك بالله، أو عبادة البشر، أو عبادة الملائكة والجن والأصنام، و رفضه للوساطة ولكل صور التجسيد لله، و بالأخص رفضه لفكرة تأليه المسيح عليه السلام التي تم طرحها في المجمع الكنسي الأول بمدينة نيقيه سنة 325، لأنه لا يمكن الحط من شأن الخالق و جعله أحد مخلوقاته. و هو ما يفسِّر أساس وسبب الفكرة التي ظهرت في القرون الوسطى و التي جعلت من الإسلام والمسلمين "عدو" للنصرانية. و هي الفكرة التي لا تزال مع الأسف تتغلغل بشكل مُلِّح في الوعي البشري المسيحي بإصرار عنيد.

يكفي أن نقرأ كتاب فيليب آجي المعنون : "يوميات عميل سرى: عشر سنوات في المخابرات المركزية الأمريكية" Journal d`un agent secret: dix ans dans la C.I.A. ، الذي ظهر سنة 1975، لنرى إلى أي حد تسلل التدخل السياسي في الفاتيكان، كما يكفي أن نقرأ كتاب سيادة لويدجي مارينيلّي المعنون : "كشف الفاتيكان" "Le Vatican mis à nu", و هو كتاب يكشف حقائق متفجرة، يكشف النقائص و الفضائح بجميع أنواعها، التي تتزايد بلا رادع في إدارةٍ هَوَت منذ زمنٍ بعيد في مستنقع السياسة و دسائسها.

إن الإسلام كما رأينا، لا يتنافى على الإطلاق مع العقل، أو الروح العلمية، أو حقوق الإنسان، و ليس كما يتطاول جون كلود بارو في قوله: " انه دين جاء من الصحراء و لا يخلق إلا الصحاري"، وهو بذلك ينضم إلى كل الذين يصرّون بتشبث على التخلص من الإسلام. وهو بالفعل يقولها صراحة في نهاية كتابه ، في سياق مدحه للحداثة: "إن الحداثة الممتدة الدوام لا يمكن إلغاءها، و ليس أمام الإسلام إلا أن يتكيف معها من أجل الصالح الأعظم للبشرية،أو أن يختفي". (صفحة 134)!!

إن هذه الحداثة المزعومة " الممتدة الدوام"، هذه الحداثة " المبنية على موت الإله"، و التي اختلقها الغرب بشتى الوسائل و على حساب خسائر لا حصر لها ، أصبح هو أول من يشتكي منها في أيامنا هذه. لأنها السبب الأساسي في ما يعاني منه من تشتت و خروج عن المسار. لذلك فإن فكرة تكيف الإسلام أو زواله ليست واردة، لأنه لا يمكن أبدا التكيف مع شيء منتحر، أقرح، و يتساقط باليا. إن حداثةً مبنية على إلغاء الخالق لاستبداله بالتقدم المادي، بالمال، و بالأنانية و الفجور، تحت ذريعة الحرية الشخصية، تناقض كل منطق و كل الأخلاقيات.

وبالتأكيد على أهمية العقل، العلم و المعرفة، و بإبراز الإنصاف و العدل و الحرية كمعيار، و بلورة أهمية التكافل بكل أشكاله؛ فإن الإسلام الذي يشمل توجيهات ثقافية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية و عسكرية، يثبت أنه دين و نظام اجتماعي كامل، في حركة دائبة داخل نظام ثابت، و حول محور ثابت ، يحترم كرامة الإنسان، و يدعوه لإتباع صراط الاستقامة و الرقي، دون خلط للأوراق.

هذه هي الخطوط العريضة التي تتضح من قراءة القرآن والتي حاولنا استخلاصها في مظاهرها الأساسية : المقاصد و الأخلاقيات، و هي المظاهر التي تبيِّن و تبرهن في آن واحد على أن القرآن ليس مناقضاً للعقل ولا للتفكير العلمي، و لا يمكن أبدا أن يكون موقعه : " أدنى بكثير من بقية النصوص الدينية الكبرى للإنسانية " كما يقول بارو، ومن غير الصحيح أنه غير مكترث بحقوق الإنسان، أو أنه دين حرب أو " دين جاء من الصحراء و لا يخلق إلا الصحاري" مثلما يؤكد بارو في الصفحة 110 من كتابه، حتى وصل إلى ما نقلناه من قبل من خاتمة لكتابه، في تقرير مبرزاً فيه أهمية و قيمة الحداثة الغربية، قائلاً أنه " ليس أمام الإسلام إلا أن يتكيف معها من أجل الصالح الأعظم للبشرية،أو أن يختفي" !

و بعد بسمة مريرة عابرة، فلا نستطيع أن نمنع أنفسنا من عمل مقارب بين تاريخ ظهور هذا الكتاب، سنة 1991 ، و القرار المتخذ في مجمع الفاتيكان الثاني سنة 1965، و الذي ينص على اقتلاع الإسلام في التسعينيات. تماما كما تم اقتلاع الشيوعية في الثمانينيات (هدم سور برلين سنة 1989، و انهيار الاتحاد السوفيتي سنة 1992)، بالتأخر عامين عما حددوه. ولا أحد يجهل في أيامنا هذه أن هذا الانهيار بدأ مع بداية عملية الحوار الجديد مع الماركسية، على ضوء ما حدده الفاتيكان و باختلاق العام المرْيمي (نسبة إلى مريم العذراء) و إعدادات أخرى، لا نذكر منها إلا " الخطة الخمسية" ليوحنا بولس الثاني. وهو ما يسمح لنا بأن نفهم بوضوح أن هذا الكتاب الصغير ل كلود بارو بعامة، و الكثير غيره بخاصةً، تمثل الضوء الأخضر لهذه الموجة الجديدة و الشرسة من الهجوم ، و التي بدأت أيضا تحت ذريعة حوار الأديان، وفي حماية الغطرسة المعربدة وغير الإنسانية لمن يمسكون بخيوط اللعبة، في ظل الصمت المَقِيت و المتعصب لهذه "الأومرتا" المفروضة أو قانون الصمت الرهيب، الذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. انها حملة صليبية مقصودة، تفجّرت بالفعل مع التمثيلية المفتعلة للحادي عشر من سبتمبر 2001 الشهير. ومن المؤكد أنه لا يوجد ما يصدم في هذه التسمية، لأنه ليس هناك فقط العديد من سيناريوهات الأفلام الأمريكية التي تتخذ جريمةً مدبرة مبرراً لارتكاب جريمة أخرى أكبر بكثير من الأولى، لكن هناك أيضاً دلائل عديدة تكشفت منذ ذلك الوقت ، تثبت صحة هذه التسمية، و لكنها بقيت طيّ الكتمان. إن هذا التاريخ المشؤوم لا يمثل في الواقع إلا بداية تنفيذ التعليمات التي كانت رامية إلى محو الإسلام في التسعينيات بشكل عملي، حتى تبدأ الألفية الثالثة و قد تم تنصير العالم بأكمله تحت حماية الكاثوليكية الفاتيكانية ! من المحزن قول ذلك، و ربما كان من المحزن قراءته ، و لكن ما يدعو للحزن أكثر بكثير هو الحياة في مواجهة هذا الصمت المطبق لهؤلاء ، الذين يراقبون في صمت ، بلا أي رد فعل...

إنها مطاردة حقيقية للبشر، موجهة خصيصا ضد المسلمين ،الذين تم وصمهم بشكل همجي، منذ 14 قرنا، بأنهم "الأعداء".. مما يمثل دليلا ساطعا ومخيفا في آن واحد على الدور غير الإنساني، و الإجرامي لمن يمسكون بخيوط اللعبة. إنها جريمة جديدة ضد الإنسانية، ترتكب تحت أنظار العالم بأسره... ذلك العالم الذي التزم

بالصمت أمام جرائم كثيرة أخرى، في عشرات السنين الأخيرة، و لا نذكر منها كمثال إلا جريمة سلب فلسطين: فالكل يعلم تماما متى، و على يد من، و كيف، و لماذا تم انتزاع هذه الأرض، و التي لا تزال تتعرض كل يوم و بشكل منتظم للسلب، تحت سمع و بصر العالم الذي اعتاد على الصمت، و على قبول التحيزات و اعتاد بالأخص على جعل القاهر و المقهور على قدم المساواة ! عالم يدّعى أنه متحضر، متطور، و متفوق !!

و بدلاً من تغذية كل هذه الكراهية تجاه الإسلام و المسلمين، تلك الكراهية المتوارثة عبر العصور، و التي زرعتها كتب الدراسات و وسائل الإعلام بطريقة منهجية إلى أن أصبحت جزءاً لا يتجزأ ، بل جزءاً تلقائياً من الشخصية الغربية؛ و بدلاً من وضع الباطل والحق على قدم المساواة؛ بل و بدلاً من فرض الباطل بوحشية ليكون أعلى من الحق ؛ على حساب أكثر من مليار من البشر، يذبحون و ذنبهم الوحيد - في عين من يقودون هذه المذبحة- هو أنهم حافظوا على دينهم سليماً، دون أي تحريف .. بدلاً من كل هذا الظلم، ابرزوا قيم الإنسانية و الضمير... فالإسلام لا يفرض نفسه على أحد ، " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (سورة الكهف، الآية 29) هذا ما يقوله القرآن.

والإسلام لم ينزّل إلا لأن رسالتي التوحيد السابقتين تعرضتا للتحريف. فالتوحيد هو أولا: الوحدانية المطلقة لله الذي " ليس كمثله شيء " (سورة الشعراء، الآية 11). و قد انحرف اليهود باتخاذهم العجل إلهًا، وقتلهم الأنبياء والرسل، و لم يبعث المسيح إلا لهداية خراف بني إسرائيل الضالة (إنجيل متّى 15: 24)- أي لإعادتهم إلي التوحيد. والمسيحيون انحرفوا بتأليههم للمسيح وبفرضهم التثليث، مقيمين بذلك نوعاً من الشرك بالله. وهذا هو ما أدى لكثير من المجازر بين المسيحيين و اليهود أولا، ثم بين المسيحيين بعضهم البعض، ثم بين هؤلاء المحرفين و بين المسلمين.

ألم يحن الأوان لنفهم ، بعد 2000 عام من المجازر، كما قال بحق الأب لولونج (ص73) أن التصدي للإسلام بكل الوسائل, بكل هذا القهر السياسي و كل هذا الاضطهاد الديني, لم يتمكن أبدا من دحض سعي الشعوب نحو الحرية، و تشبثها الثابت بدينها ؟!

إن المشاركة في وقف هذه المجزرة الشاملة، وهذه الحملة الصليبية الجهنمية، متروك لضمير القارئ... لأننا نحن، المسلمون، المدفوعون رغماً عنا نحو المجزرة، لا نملك ببساطة سوى قناعتنا و إيماننا، بلا أي مساندة من أي كائن كان، و لا حتى من أكثرية حكامنا، الذين يعد وجود غالبيتهم العظمى إما قائم أو مدعوم بفضل كبار المحرِّكين لهذه اللعبة المرعبة ، التي يشارك فيها ذلك المجتمع "الإنساني" الدولي، بصوت مخروس، و الذي يقال عنه أنه متحضّر ...

يناير2002

المراجع

1- القرآن الكريم.

2- Barreau, Jean-Claude : *De l'Islam en général et du monde moderne en particulier*. éd. le Pré aux clercs, Paris, 1991.

3- Bucaille, Maurice : *la Bible, le Coran et la Science.* éd. Seghers, Poitiers/Ligugé, 1980

4- محمد عبد الله دراز: أخلاقيات القرآن.
نشر. الصحافة الجامعية الفرنسية، باريس، 1951؛ الطبعة الثانية، وزارة البحوث و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، 1983.

5-محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم.
نشر. دار الشروق، القاهرة، 2000.

6- د. أحمد الحوفي: سماحة الإسلام.
نشر. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1994.

7- سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي.
نشر. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة عشر 1997.

8- Lelong, Michel, Père *: l'Eglise catholique et l'Islam* éd. Maisonneuve/Larose, Paris, 1993

9- محمد الصادق قمحاوي: شبهات مزعومة ضد الإسلام وردها.
نشر. دار الأنوار، القاهرة، 1978.

10- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي.
نشر. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1994.

11- Thomas, Joseph : *le Concile Vatican II* éd. Cerf/Fidès, Paris, 1989

12- *Vatican II, Documents conciliaires* éd. le Centurion, Paris, 1966